

## الاغتراب والهجرة غير الشرعية في رواية العسل المرّ لجيلالي إلبيلة

*Alienation and illegal immigration in the novel Bitter Honey by Gilali Elila*

ليندة بن سايج

أد حميد علاوي

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2024/04/27 | تاريخ القبول: 2024/02/27 | تاريخ الإرسال: 2023/12/27 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

الملخص:

تهدف هذه المداخلة إلى تحليل الأنساق المرتبطة بالبطل المغترب في رواية العسل المرّ للكاتب الجزائري الشاب جيلالي إلبيلة، تتشكل مراحل التحليل من خلال مقارنة ونقد الخطابات الموجودة في النص، والتي تعكس حال فئة كبيرة من الشباب الجزائري الحالم بالهجرة، مع النظريات النفسية والاجتماعية والثقافية التي تمس على وجه الخصوص قضايا الاغتراب والهجرة الغير شرعية والهوية وصورة الآخر وحتى العولمة.

تنطلق الدراسة حسب مضمون الرواية من أسباب الهجرة الغير شرعية وحال الشاب المغترب داخل وطنه الأصلي وصولاً إلى تجسيد فكرة الهجرة بطرق غير قانونية وغير أخلاقية وتبلور الاغتراب النفسي ضمن سياق هوية الآخر، وقد توصل التحليل إلى أن اضطراب صورة الأنا والتشكل المشوه للهوية هو السبب الرئيسي في تجلي الاغتراب بهذه الصورة وبهذا الدرس النقدي في الرواية.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، المثاقفة، هوية الآخر، الهجرة، البطالة

**Abstract:**

*This intervention aims to analyze the patterns associated with the expatriate hero in the novel Bitter Honey by the young Algerian writer Djilali Lalila. The stages of analysis are formed through approaching and criticizing the discourses present in the text, which reflect the condition of a large group of Algerian youth dreaming of emigrating, along with the psychological, social and cultural theories that affect their lives. In particular, issues of alienation, illegal immigration, identity, the image of the other, and even globalization. The study begins, according to the content of the novel, from the causes of illegal immigration and the condition of the expatriate young man within his native country, leading to the embodiment of the idea of immigration through illegal and immoral methods and the crystallization of psychological alienation within the context of the identity of the other. The analysis concluded that the disturbance of the ego image and the distorted formation of identity is the main reason for the manifestation of Alienation in this way and with this critical lesson in the novel*

**Keywords:** alienation, acculturation, identity of the other, immigration, unemployment

\*\*\* \*\*

المؤلف المرسل: bensaih.lynda@univ-alger2.dz

## مقدمة:

يُراهن الأدب الجزائري دائما على القضية/ الرسالة، فنجد أن الأدباء في محاولة دائمة لاستنطاق آفات المجتمع المختلفة، ذلك أن الأدب هو انعكاس لحياة الشعوب، تناولت الرواية الجزائرية في هذا الصدد تيمة الهجرة والاعتراب وربطت بينهما من خلال ذكر الأسباب المؤدية لحدوثهما والمتمثلة في توفر الدوافع المختلفة وكذا وسائل تجسيد هذه الأفكار، فالهجرة تبدأ بفكرة ثم تتبلور مقترنة بجملة من العوامل تزيد تأكيد هذه الفكرة حتى تتجسد في أشكال مختلفة، ولم تكتفي الرواية بذكر الحالة الاجتماعية والنفسية للشباب الراغب في الهجرة وهو موجود في وطنه وبين عائلته بل تجاوزت ذلك إلى مرحلة تحليل تبعيات الهجرة على الشاب وعلى عائلته وعلى المجتمع.

التزمت الرواية الجزائرية بتحليل قضية الهجرة ضمن سياقات مختلفة، تبدأ بالبعد الذاتي (الأنا المغترب) في حدود ثقافته ومجتمعه وصولا إلى الأنا المهاجر في حدود قومية أخرى وثقافة أخرى، في تفاصيل أخرى يرتبط التحليل بعلاقة الشاب المهاجر مع المجتمع الغربي والتي تتجلى في صور متضاربة كالمثاقفة والعنصرية وغيرها.

إنطرح الأديب لمسألة اغترب النفسي للشخصية داخل نسق الهجرة غير الشرعية كان إضافة حقيقية للمضمون وللسرد أولا ثم هو تأكيد لرؤية الأديب الشاملة لكل الآفات التي تحيط بالشباب الجزائري، ثم في مرحلة أخرى هو مسائلة للجهات المختصة من أجل الاهتمام بهذه الظواهر التي عرفت انتشارا كبيرا على المستوى المحلي والعربي، منها البطالة والمخدرات والتفكك الأسري وغياب وسائل الترفيه وانفتاح المجتمع على ثقافة الغير واستغلالها بطرق سلبية ومن هذا الباب نطرح التساؤلات التالية في أمل الإجابة عنها في التحليل:

- كيف جسد الأديب فكرة الشاب الحالم بالهجرة ؟

- ماهي أهم المحاور الاجتماعية التي ركز عليها السارد في تحليله لظاهرتي الهجرة والاعتراب ؟

- إذا كان الهدف الأساسي للأديب هو مسائلة الواقع فهل يكفي إذن المرجع الواقعي أم أن الأديب في هذه الرواية استعان بتقنيات

الخيال ليرسم لنا واقعا مثاليا يتمناه الشباب ويتمناه المتلقي أيضا ؟

## 1/ الاغتراب سرديا :

تسعى السرديات خاصة ذات البعد الواقعي كالرواية الواقعية مثلا إلى استحضار تيمة الاغتراب بشكل كبير، يعود هذا إلى أهمية هذه الظاهرة من جهة اشتغالها على ظواهر اجتماعية ونفسية وثقافية وسياسية عديدة، فترتقي داخل المضمون السردى بمجرد ارتباطها بإحدى العناصر المذكورة سابقا.

يتجلى الاغتراب سرديا انطلاقا من مفاهيم مختلفة ومتضاربة، تبدأ بالمعنى العام لتنتقل إلى الجزئيات، والرواية بما أنها تصب في باب السرديات المعقدة والتي يحتاج فهمها وتفسيرها إلى الاستعانة بالنقد الأدبي فإنها تضيف للاغتراب خصوصية سردية وفنية وجمالية معينة تزيد من غموضه وتشعبه.

بالنسبة لمفهوم الاغتراب نظريا فإن الخوض فيه لا ينتهي، لذلك فقد ركزنا على الجانب التطبيقي بعد الامام بالجانب النظري والذي يتوفر في العديد من الكتب النقدية ورسائل الماجستير والدكتوراه، وكان الهدف الأساسي من هذا البحث هو فهم سيكولوجية البطل المغترب في الرواية المدروسة، ولا يخفى علينا أن مفهوم الاغتراب يشوبه الكثير من الجدل والغموض، و"لا يقتصر غموض معنى الاغتراب على تنوع المفاهيم والنظريات، بل يشمل أيضا الاختلاف في المستويات التي يتم التحليل على أساسها إذ ليس هناك تمييز في الكثير من معالجة هذه المفاهيم والنظريات فيما إذا كان الباحث يتحدث عن الاغتراب كحالة مجتمعية موضوعية، أو كحالة شعورية وتجربة نفسية خاصة لدى الفرد، أو كحالة ثقافية تتعلق بالقيم والمعايير بحد ذاتها، أو حتى كحالة سلوكية في محاولة لتجاوز الاغتراب"

(بركات، 2006، صفحة 57) وهذا بالتحديد ما قام به الأديب حيث أنه تقمص دور الباحث وأسند لروايته الكثير من الأبعاد، هذا ما ينم عن دراسة كافية ووافية للموضوع، فجاء تجسيد فكرة الاغتراب قريبا من كل الجوانب النظرية له، متوغلا بشكل كبير في جوانبه النفسية والاجتماعية دون اهمال الجوانب الأخرى.

نفهم الشخصية المغتربة انطلاقا من بعض الحالات التي تعيشها، وفي هذا الصدد "يتحدد مفهوم الاغتراب في الشخصية بالجوانب التالية:

- حالات عدم التكيف التي تعانيها الشخصية، من عدم الثقة بالنفس، والمخاوف المرضية، والقلق، والإرهاب الاجتماعي .

- غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي للشخصية.

- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية والانتماء والشعور بالقيمة والإحساس بالأمن" (خليفة، 2003، صفحة 81)

تتجسد من هذه الأفكار والمشاعر التي تكون الانسان المغتربي مجموعة من السلوكيات الغير سليمة، كما أن هذه الأفكار تتغير وتتأقلم في فضاءات مختلفة، فنلاحظ مثلا على شخصية البطل المغترب مراد في رواية العسل المرتجلي هذه المشاعر أثناء وجوده في الوطن الأم (الجزائر) وعند وجوده أيضا في الغربة (فرنسا) وهو ما يؤكد بأن أساس الاغتراب هو داخلي لكنه يتأزم مع الأحداث السلبية ويتفاعل مع تغير الأمكنة ومع المؤثرات الخارجية المختلفة وهو ما سنكتشفه في مراحل التحليل القادمة .

ينشأ الاغتراب وخاصة النفسي من أسباب كثيرة ويتجلى في عدّة صور ولكن تجليه سرديا يُعطي له أبعاد واقعية، لأن الرواية هي تشخيص للحالة، فتصور لنا الشخصيات في ذروة اغترابها، أي أن الاغتراب كحالة اجتماعية ونفسية وكمجموعة عوامل نظرية تُطبق على شخصيات ونرى ثمار هذا التطبيق سرديا والأديب وهو يحرص شخصية المغتربة في متنه القصصي يكون مُدركا لحقيقة أن تركيب هذه الشخصية هي انعكاس لشخصية أخرى لها وجود حقيقي وبأنها ستقارب بنظيرتها في العالم الحقيقي وستخضع للنقد والتحليل لأنه يمس قضايا الواقع، وهنا تتجلى قيمة الأدب في أنه مرآة للمجتمع.

يُصيب الاغتراب النفسي الشباب بصورة كبيرة، رغم أنه لا يقتصر على فئة عمرية واحدة إلا أن الاغتراب الذي يصيب الشباب هو الأكثر تداولاً سرديا، حتى مفاهيم الاغتراب الكثيرة تتطابق مع سيكولوجية الشاب أكثر مما تنطبق على سيكولوجية الفئات العمرية الأخرى مثل ما جاء به علماء النفس والاجتماع، في صورة كينستون مثلا الذي يُرجع معنى الاغتراب إلى فقدان الرغبة "يري كينستون أن الاغتراب هو فقدان الثقة وما ينتج عنه من شعور بالغربة والسخط وفقدان الاتجاه والانسحاب وعدم الالتزام وعدم الانخراط واللامبالاة وعدم الاكتراث والحيادية" (العقيلي، 2004، صفحة 12) لا يحتاج الأمر الكثير من التحليل حتى نكتشف بأن هذه الصفات تنطبق على عدد كبير من الشباب العربي والجزائري، خاصة وأن الشباب يُمثلون النسبة الأكبر من تعداد سكان البلدان العربية، تنطبق هذه الصفات على شخصية مراد في الرواية أيضا .

تتميز مرحلة الشباب بأنها مرحلة صعبة، وقد تكون أصعب مرحلة في حياة الإنسان لأنها مرحلة انتقالية ومرحلة الانخراط في العمل وتكوين حياة مستقلة ومستقرة أيضا، وهي مرحلة لا تخلو من الضغوطات النفسية والاجتماعية، و"قد تتخلل مرحلة الشباب أزمات نفسية، والتعبير عن بعض الأزمات ينعكس في الشعور بالاغتراب، وهناك اختلاف في الآراء حول هذه الأزمات فبعضهم يرجعها لطبيعة مرحلة المراهقة وما تتميز به من خصائص، وبعضهم يرجعها إلى الظروف الحضارية والنظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يعيشه الفرد" (العقيلي، 2004، الصفحات 19-20) ومهما كان السبب إلا أن الاغتراب بكل تفاصيله وأسبابه عندما ينتقل سرديا فإنه يتحول مع

أدوات الأديب من ظاهرة اجتماعية وظاهرة نفسية إلى سرد قصصي يتحقق فيه الدرس الفني والجمالي والفلسفي والأدبي والأخلاقي من خلال التفاصيل التي تنطلق من الواقع ويغذيها الخيال الابداعي لتصل إلينا في شكلها الروائي.

## 2/ سيكولوجية الشخصية المغتربة :

يسعى الغرب لنشر فكرة مثالية حول بلدانه، هذه الفكرة توسعت إلى أن سيطرة على أفكار الشباب الشرقي والعربي خصوصا ، ومراد من هؤلاء الشباب الذين فقدوا الرغبة في البقاء داخل أوطانهم التي لم تُنصفهم ولم تُقدم لهم فرص النجاح والاستقرار، يُمكن للشباب العربي أن يرى الرفاهية التي يعيشها الغرب بكبسة زر واحدة انطلاقا من الأفلام الأمريكية والأوروبية، ومراد واحد من هؤلاء الشباب العربي الذي كانت " تستهويه أفلام الأكشن والأشرطة الوثائقية الخاصة بعالم البلدان والمدن الأوروبية الكبرى، لاسيما تلك التي تشيد بالتقدم الحضاري، كما يشده أيضا التقاط بعض الأخبار العالمية" (الليلة، 2016 ، صفحة 59) هذا ما جعل حياته كابوس ومن هنا بدأت مأساته الفعلية، لأن هذه الصورة الواهمة تجعله دائما في محل مقارنة بينها وبين ما يعيشه، فتزيد حدة اكتنابه واغترابه، ويرفض أكثر الواقع الذي يعيشه، لذلك فإن أصل الحكاية وكل السرد والأحداث كانت بسبب هذه النقطة لأنها أكثر شيء أثر في نفسية البطل مراد ويجعله يتخذ كل القرارات القادمة ويدخل في متاهات أسوأ بكثير مما كان يعيش .

تؤدي الصورة المثالية المُصدرة من طرف الغرب اعلاميا وفنيا من خلال الأفلام والكتب والأشرطة الوثائقية إلى تهكير عقل الشاب الجزائري ( العينة نراد) وهو ما تُرجعه إلى آفة موجودة بكثرة وهي الهجرة بأي وسيلة كانت، غير أن ما أكد عليه الكاتب في رؤيته السردية هي الطريقة التي تتحول بها الفكرة إلى واقع والمقارنة بين جمال الأفكار ومثلثتها وبين قسوة الواقع وفجاعته، لذلك فإن سيكولوجية الشخصية المغتربة تمر على مرحلتين إثنين وهوما اغترابها داخل الوطن الأم أي قبل الهجرة وهنا تتجلى الفكرة المليئة بالأوهام أما الجزء الثاني فيكون اغترابها خارج الحدود القومية وهنا تتجسد الفكرة وتتحول حال الشخصية لتعيش مغامرات كثيرة تزيد من اغترابها .

نُميز بين اغتراب مراد داخل الحدود القومية واغترابه خارج الحدود القومية العديد من النقاط المختلفة، تنشأ من العلاقة التي تربط الشخصية بالمكان ثم يتحول المكان ليؤثر على الهوية الشخصية للفرد بطريق عدّة، ثم تتجلى اللغة والعادات والتقاليد والدين والحب والجنس وغيرها من العوامل التي تجعل مراد في مفترق طرق، بين التمسك بهويته المسلمة الجزائرية العربية أو في الانخراط في ثقافة الآخر، وغالبا ما كان يحدث هذا بدون إرادته، فكان مُجبرا على القيام ببعض السلوكيات حتى يُحافظ على حياته وهو ما جعله ينحدر من الاكتئاب والاغتراب حتى وصل إلى الإنطفاء النفسي وهو أكثر ألم نفسي يمكن أن يعيشه الإنسان ..

من جهة أخرى فإن هناك نقاط كثيرة مشتركة بين الاغتراب الذي عاشه مراد في الجزائر والاغتراب الذي عاشه في فرنسا، لأن نوع الاغتراب في حد ذاته واحد وهو الاغتراب النفسي، لكنه لا يُحافظ أبدا على نفس سيرورته ونفس مساره بل يتغير ويتأقلم مع الأحداث، ويزيد قوة عندما يتصادم مع مشكلات الهوية وثقافة الآخر ومع المبادئ الأساسية لمراد .

## أ/ اغتراب الشخصية داخل الوطن الأم :

يجسد لنا جيلالي إليليلة حالة البطل مراد الذي يعيش داخل متاهة الفقر والعوز والتهيه النفسي، وبما أن شخصية مراد شخصية مركبة جدا ،تعاني من انفصام سلوكي حاد، فهو لين وقاسي في نفس الوقت، وهادئ أياما وغاضب أياما أخرى، لا يمكن توقع خطواته القادمة، وهو ما يجعل المتلقي حائرا في تحليل افكاره ومشاعره، يعود هذا الاختلال أو التركيب بالدرجة الأولى إلى الوحدة الخائقة التي تحيط به، فهو لا يملك أصدقاء مقربين ولا يملك أسرة تُسانده، فهو يتيم الأب، يعيش برفقة أمه العجوز التي لا تملك حولا ولا قوة، هذا ما جعله

يعيش بدون هدف، هذا الفراغ أدى به إلى البحث عن هدف حقيقي لحياته، يجعله هذا يتجاوز الأهداف الصغيرة التي حارب من أجلها ولم يحصل عليها مثل السعي من أجل الحصول على وظيفة إلى أحلام وأوهام أخرى .

يذكر الأديب على لسان السارد أن مراد لم تكن له طفولة سعيدة ولا مراهقة سليمة بسبب الفقر من جهة ولعزلتهم الاجتماعية من جهة ، فبمجرد موت والده تخلت عائلة والده عنهم وهو ما جعله يعتاد على فكرة الوحدة والعزلة ومع تفاقم ازماته النفسية بسبب الفراغ والبطالة تطور الأمر فأصبح "يجنح بنفسه على الدوام إلى الانطواء والانزواء بعيدا عن أي صخب، محبذا الوحدة سبيلا لاختلائه بلفتين أو ثلاثة من سيجارة محشوة بالحشيش، عادة سقيمة بذئنة اعتادها منذ أسبوعين على الأكثر إذ اقترحها عليه صاحب سوء جمعته به مرامي متشابهة لمستقبل واحد" (إلى، 2016 ، صفحة 17) ثم ليتحول بعد مدة إلى مدمن يسيطر الحشيش على حياته ، لأن الحشيش كان يساعده على الغوص في أوهامه ويجعله يتخيل نفسه سعيدا في أوروبا .

ساهم الإدمان في زيادة مشاكله النفسية خاصة ،بالإضافة لغياب الأمن النفسي والاجتماعي والمادي الذي كان يعيشه، فحاجته المتكررة للحشيش جعلته يرفض فقره ،فلجأ إلى اللعب على امرأة اربعينية مطلقة من أجل الحصول على المال فكان يوهمها بالحب وهي بالمقابل تعطيه النقود وتشتري له الملابس الجديدة والهدايا من ساعات وهاتف نقال حديث وغيرها، إلا أنه كان أحيانا يعود لنفسه فيعامل أمه بطريقة جيدة ويتبعد عن طريق المرأة الأربعةينية إلا أن الفراغ والإدمان كان يعود به دائما إلى نفس النقطة، يُصور لنا الكاتب أحيانا هيئته انطلاقا من رؤية أمه لحاله " إنه كالرياح تهبّ نسمة فوّاحة تأتي محمّلة بالغيث الطيّب الذي يغسل عن الأرض أدراننا خلفها الناس والدواب، كما يجيء مَرَات كهبة عاصفة هوجاء تدمر كل شيء" (إلى، 2016 ، صفحة 57) يبقى مراد بتقلباته هذه حتى نهاية الرواية، تدلّ هذه التقلبات على غربته الشديدة لأن من أهم مظاهر الاغتراب هو عدم اليقين او عدم ادراك الذات.

تتطور الفجوة بين مراد وبين مجتمعه ما يؤدي إلى مشكلات في الهوية، فيبدأ تدريجيا في الانسلاخ من ثوب الالتزام، فيبتعد عن صلاته وينساق إلى وكر العلاقات الغير شرعية، ما جعله يشعر بأنه لا ينتمي للمجتمع الجزائري وبأن تقاليد المجتمع تعيقه، بالمزمنة مع ابتعاده عن مبادئ هويته بدأ يركز أكثر في الهوية الأوروبية انطلاقا من إدمانه مشاهدة الأفلام وسماع الأغاني الأوروبية فزاد تأثيره بهم وأصيب بما يعرف عدم تعيين الهوية، والمعروف عن الاغتراب بأن يأتي دائما مرتبطا بمشاكل الهوية، لأن ثبات الإنسان على قوميتهم وقناعاته بها يجعله يحاول الانخراط في المجتمع إلا أن مراد بدأ ينفر من كل ما هو جزائي " يؤدي عدم تعيين الهوية إلى تجنب مواجهة الواقع، والهروب منه يؤدي إلى تزايد في اتجاه الهروب والعجز وإلى ضمور القدرات والإمكانات اللازمة لتحقيق التغيير إزاء حركة النمو الغير متناغم أو المتجانس في الحياة الاجتماعية ليكون الاغتراب، فالمغترب يعاني من القلق والاكتئاب" (خليفة، 2003، صفحة 64) فأصبح بدل السعي إلى حلّ مشكلاته منساقا إلى هوية الآخر ويحاول جاهدا الوصول إلى حلمه في أن يصير جزء من الثقافة والوجود الغربي .

يرى فرويد الإنسان كائنًا معذبًا في عمق وجوده، حتى إنّه قد لا يعي مصادر عذابه فيلجأ إلى وسائل تخفيفية عدّة، من بينها اللجوء إلى اختراع الأوهام. ومهما يكن موقفنا منه، فلا بد أن نعتزف أنّه قدّم مفهوما مختلفا واكتشف أبعادا خفية في النفس البشرية" (بركات، 2006، صفحة 15) شخصية مراد تُشبه كثيرا هذا النموذج لشخصية الإنسان المُعذب في علم النفس، حيث أن نقطة الالتقاء بينهما تتمحور حول الشعور والسلوك ،وحول الأسئلة التي يرددها دائما مراد على نفسه ولا يجد لها جوابا، فكان يهرب من أسئلة روحه وضميره إلى وهم الهجرة نحو أوروبا التي ستحقق له من وجهة نظره النجاح والسعادة، فهو لا يلتقي مع روحه إلا وهما ولا يتحدث مع نفسه ويجلس إليها إلا للغوص في أحلامه الوردية، ها هو يتحدث مع نفسه قائلا " أه لويتحقق حلمي، خطوة واحدة وأطير إلى أفق الأغنياء والسعداء، سأجني مالا وفيرا في فترة وجيزة جدا...كل من وصلوا إلى هناك نجحوا ...يا لحظهم السعيد!" (إلى، 2016 ، صفحة 15) لقد أصر الكاتب في لذكر بعض التفاصيل الصغيرة انطلاقا من أفكار مراد الناسئة أساسا من الحكايات المغلوطة التي يسمعها، فأغلب

الحكايات التي كونت في فكره أن أوروبا جنة هي حكايات سمعها من أقارب لمهاجرين غير شرعيين يُقاسون الويلات لكنهم يتصلون بأهليهم وعائلاتهم ويزفون لهم أخبارا كاذبة بهدف طمأنتهم، وهو ما سيفهمهم لاحقا ويختبره بنفسه، ولروعة هذه الحكايات جعلته يتجاهل قصص الذين ماتوا في قوارب الموت وهم في طريقهم إلى أوروبا أو تلك الذين دخلوا السجن أو الذين قتلوا على يد شرطة الحدود الشواطئ الأوروبية، تظهر هنا براعة الكاتب وذكائه في أنه لا يُعطي الأفكار في صورتها الكاملة بل يكتفي بالتفاصيل ويُحمل المتلقي واجب البحث والتحليل خاصة لفهم سلوك مراد الذي يكون دائما بين قطبين .

#### ب/ اغتراب الشخصية خارج الوطن الأصلي:

للهجرة غير الشرعية العديد من الأسباب مثلما ذكرنا سابقا ولها الكثير من المفاهيم لأنه يُنظر إليها من زوايا نظر مختلفة، فيُنظر إليها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا كما أنها تؤثر في العلاقة بين البلدان المختلفة وتعني بمعناها البسيط " الولوج أو دخول العمال إلى بلد ما دون وجود أوراق ثبوتية أو تصاريح دخول، والتي تتم عادة عن طريق تهريب المهاجرين أو من المهاجر نفسه، وأحيانا بتدخل سمسار يسهل الهجرة غير الشرعي" (سمير، 2010، صفحة 108) وهو ما قام به مراد حيث انه استعان بسمسار له تجارب كثيرة مع الهجرة غير الشرعية وقد قام بتهجير عدد كبير من الشباب وهو ما جعل مراد يثق به ويسلمه مفاتيح مستقبله .

تُسيطر على الرواية تقنية طرح الفكرة سواء على لسان السارد أو الشخصيات ثم بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة الحدث حيث نرى عواقب تتبع الأفكار الغير سليمة والغير مرتبة، لأن فكرة الصبي في الهجرة لو تحققت لأسباب صحيحة وتتبع في هذا السبيل الصحيح لكان وضعه أحسن بكثير، لأن الكثير من الشباب الجزائري والعربي مهاجر من أجل الدراسة والتكوين أو للبحث عن عمل ولكنهم يتخذون السبيل الصحيح وليس سبيل قوارب الموت لأن مراد حتى لو نجى ووصل إلى فرنسا سالما بلطف من القدر إلا انه ذهب لوجهة مجهولة بدون زاد لغوي أو زاد مادي، وهنا يبدأ القسم الآخر من الاغتراب.

وفي هذا الصدد كان يمكن للكاتب أن يُعجل نهايته ويجعل البحر قبراً له مثلما يحدث مع الكثير من المهاجرين الغير شرعيين إلا أنه واصل السرد حتى يُفند فكرة أن أوروبا هي مكان لتحقيق الأحلام وتحقيق المستقبل، وبأن هذا العالم منقسم إلى " عالمين مختلفين عالم الغرب، عالم الحرية، عالم الواقع، العالم الذي يمارس فيه الفرد رجلاً أو امرأة حريته بناء على قناعاته، وعالم الشرق، عالم الكبت والحرمان، الذي يتوقع الإنسان فيه على ذاته، ليعيش معها في مونولوج متواصل لا ينتهي " (فاسي، 2006/2005، صفحة 50) هذه الفكرة المشوهة هي أساس هجرة عدد كبير من الشباب، كما أنها تساهم في انتشار الكثير من الأمراض النفسية خاصة الاكتئاب الذي ينشأ خاصة من المقارنات الدائمة بين حياة الشاب الغربي وحياة الشاب العربي والجزائري، وكانت خصوصية هذه الرواية في أنها اخذت بعينة من هؤلاء الشباب إلى فرنسا بطريقة المقارنة حيث أن مقارنة مراد لحياته البائسة في الجزائر مع ما شاهده وسمع عنه في فرنسا أعطت لنا خطابات معينة ثم تتحول الرؤية بانتقال مراد إلى فرنسا وتبدأ المقارنة في الاتجاه العكسي بين حاله كمغترب في فرنسا وبين ما كانت عليه حالته في الجزائر، أي أن فكرة الهجرة تحققت ولكن هل كانت نتائجها كما كان يُخطط لها مراد ويحلم بها ؟ أم أنه تجاوز بأوهامه سقط الواقع الأوروبي بكثير ؟ في الحقيقة فإن أول انطباع له عندما دخل فرنسا، بعدما استنزفت طاقته وهو يحاول الهروب من الشرطة الفرنسية، كان سيئاً لأنه ذهب للاختباء في حي يقطنه المهاجرين العرب والمغاربة وكان صدمته الأولى عندما رأى واقعهم المرّ هناك، يقول السارد : "لأول وهلة تلج فيها هذا البيت الخشبي باب، تستشف كأن ساكنيه ليسوا بشرا، بل عبيد سُجنوا فيه وأعدموا من كل أسباب العيش البسيط الساكن في كنف النظافة والترتيب" (الليلة، 2016، صفحة 166) ذلك الحي وحال المهاجرين الصعبة، حيث أن أغلبهم كان يعاني من الجوع والتعب والمرض، واكتشف بعد ذلك بأن بعض المهاجرين الغير شرعيين يبيعون المخدرات والبعض الآخر يمتن السرقعة والبعض الآخر يعيش على التسول.

شيئا فشيئا بدأت الصورة الحقيقية لفرنسا تتضح أمام أعين مراد واتضحت بقسوة لأنه بات عاجزا عن السيطرة على سلوكه وعلى مشاعره ،وزاد حزنه النفسي حتى وصل الأمر به إلى تحقير الذات وعدم تقديرها، محاولة انخراط مراد مع المجتمع الفرنسي كانت فاشلة ،ذلك أنه بالنسبة لهم شخص بدون هوية ، حتى عندما كان يعمل في بعض الأعمال الشاقة مثل التنظيف وجني المحاصيل الزراعية مقابل أجر زهيد لم يكن قادرا على إيجاد سكن يأويه ،بسبب أنه بدون هوية، وهو ما جعله يتعرض للاعتداء دائما من قبل العصابات "انطلق في بحثه من جديد على مخدع بديل لا يشترط هوية ،في ظلّ جهله التّام بمسار طريقه، فاقتادته قدماءه إلى زاوية شارع معدوم الإشارة، حسبه يقصّر مسلكه إلى النزل الذي قضى فيه ليلته الأولى مع حمزة، فالشوارع والأزقة تكاد تتشابه مع بعضها، تكسوها ظلمة حالكة سكنت ذلك الرواق من الشارع المتشعب بكل أنواع القاذورات والفضلات والأوساخ المتناثرة" (إلىللة، 2016 ، صفحة 162) تتكرر هذه المعاناة كل ليلة ،مرة تهاجمه كلاب مسعورة ومرة أخرى تهاجمه مجموعة من الأشرار يسلبون منه أجره اليومي الزهيد وأكله وأحيانا حتى ملابسه....

تشرح لنا حالة مراد المتدهورة بعد صدمته بوجه فرنسا الحقيقي فكرة أنه لم يتقبل ذلك الواقع، فكانت الأحداث السيئة التي عاشها دائما تسيطر على مخيلته ،فيعيش الوجد وجعين، ما جعله يفقد خاصية التفكير السليم ،فدخل في دائرة من العجز والإنطفاء النفسي "شَبَكَ يديه يفكر في لا شيء، يعاود الحزن وأسى الوحدة مطاردته . لقد تذكر فجأة حادثة الاعتداء الوحشي الذي تعرض له، وذلك الضرب الذي لا تزال آثاره توخر جسمه، فانتابه دعر شديد من جديد، خشية أن تنال منه عصابة أخرى وتسلب من أجرته" (إلىللة، 2016 ، صفحة 195) يتحول مراد بفضل هذه الأحداث إلى شخصية مهزوزة الثقة في نفسها وفي هويتها، فتزيد الفجوة وبينه وبين نفسه ويغترب أكثر مما كان مغتربا وتائها في وطنه، بل يصل لدرجة من الحزن والغضب على حياته وعلى وجوده التافه والغير نافع والمؤذي في هذا المكان الذي لم يستطع التأقلم مع قسوته .

تأتي ثنائية الشخصية والمكان والعلاقة القائمة بينهما لتبرز كل الخطابات المتعلقة بفكرة الهجرة الغير شرعية لأن وجود مراد بصفة غير قانونية خلق له مشاكل كبيرة في الحصول على مكان يسكن فيه وفي الحصول على العمل، كما أنه غريب عن الشعب الفرنسي ولم يستطع الاحتكاك به أو الاختلاط به، ويرجع هذا في الحقيقة إلى بعض السمات النفسية التي ألزمها الكاتب ببطله الروائي مراد، حيث أن مراد ومنذ بداية السرد عندما كان في الجزائر كان انسانا معزولا عن بيئته ومحيطه، يكره الاختلاط مع الناس بالرغم من أنهم من نفس وطنه ويتكلمون نفس لغته ويعيشون تحت مقومات هوية وطنية وقومية واحدة، هذا ما جعله يعتقد وهو في الجزائر بأنه سيجد وطنيا وهوية أخرى تستقبله لكنه عندما جاء لفرنسا تأكد ومنذ اليوم الأول بأن الهوية الفرنسية لا يمكن في أي حال من الأحوال أن تقبل به أو أن تجعله جزء منها مهما حاول وكانت هذه هي مأساته الكبيرة في هذه المرحلة من السرد .

بالإضافة لهذا فإن بعض الدول الأوروبية تشجع على الهجرة غير شرعية بطرق مختلفة وغير مباشرة ،منها تسوية وضعية المهاجرين غير الشرعيين القدامى ،خاصة تلك الدول التي تعاني من نقص اليد العاملة مثل ألمانيا التي كانت سباقة في القيام بعملية للتسوية (blanc & marie, 2001, p. 13) هذا ما ساهم في تشجيع الشباب ومنهم مراد في فكرة الهجرة، بالإضافة لقصص نجاح الجالية الجزائرية في أوروبا .بتوالي الأحداث البشعة التي تزامنت مع تشرد مراد في الشوارع الفرنسية ،وبين مشاعر الجوع والعطش والبرد والاغتراب النفسي والوحدة والحنين لداء العائلة ولحنان الأم اهتزت صورة مراد في نفسه، فبدأ تفكيره يأخذه إلى فكرة الانتحار وأصبح سلوكه غريبا، بين بكاء وضحك وبين شرود وكوابيس، وحينها يعود بنا الكاتب مجددا إلى فكرة المقارنة، فالمقارنات التي كان يقوم بها وهو موجود في الجزائر في غرفته الآمنة وهو يتخيلها كابوسا ويرى النعيم في أوروبا ويتوهم حلاوة الحياة فيها تعود لتسيطر على واقعه وهو موجود في الشارع في فرنسا يموت جوعا وبردا وهذه المرة تتجلى فرنسا واقعا مرا يعيشه ويشعر به، يظهر هذا عبر تقنية المونولوج الداخلي والتي استعان الأديب ليشرح

لنا حالة مراد السيئة، حيث يخاطب نفسه حزينا مكسورا بهذه العبارات " أنا حثالة أقتات على القاذورات بعدما كنت معززا مُكرّما أكل ما أشتي وأنام في غرفة واسعة دافئة نظيفة هادئة، أُمح فيها كما أشاء " (إلى ليلة، 2016 ، صفحة 207) وبهذا فقد جسد لما الكاتب أفكار شخصيته البطلة متجسدة في الواقع بصورة معاكسة، وأخذة إلى الذروة في ذلك، لأن مراد واقعه في فرنسا لم يكن مشابها لواقعه في الجزائر، بل كان أسوأ منه بمراحل كبيرة .

تنتهي الرواية بدرس اجتماعي مهم، حيث أن الأديب يعرض لنا من خلال المونولوج الداخلي مرة أخرى انقلاب أفكار مراد بعد كل ما عاشه من أحداث مركزة سيئة في فرنسا "هجرت جنّة حقيقية متّعني وأنعم عليّ الله بها، حجبتني أطماع نفسي وطموحاتي الواهية عن إبصارها... وفقرت منها إلى جنّة زائفة، الجحيم شرابها، السعير رداؤها، الصقيع فراشها، عذاب الضمير هواؤها، الحسرة عنوانها، الدمع أنيسها، الحزن كساؤها، الخيبة طعامها، والانتحار رومها... جنيت على نفسي فقدان ذاتي وضياح روي" (إلى ليلة، 2016 ، صفحة 225) وبهذا يعود مراد للجزائر محطّم الفؤاد، خاويا من كل معالم الروح الإنسانية خاصة بعد سماع خبر مرض أمه وملازمتها للمستشفى بعد ذهابه إلى فرنسا .

#### خاتمة:

من خلال التحليل السابق نستنتج ما يلي:

- ينشأ الاغتراب من ظروف اجتماعية ونفسية مختلفة، يتبلور بالتدريج ليصل بشكله النهائي، فقد يبدأ بعزلة بسيطة عن المحيط الخارجي والرغبة في بقاء الإنسان وحيدا وصولا إلى التركيبة الكاملة التي يشعر فيها الانسان ليس فقط باغترابه عن كل ما يحيط بل اغترابه عن نفسه وهو ما يعرف بغربة الذات.
- يؤدي غياب الأمن النفسي والاجتماعي إلى التفكير في تغيير المحيط والهجرة إلى بلدان أخرى في أمل تخطي هذا العطب مهما كانت خطورة طريق الهجرة وتؤدي في الغالب هذه الأفكار إلى سلوكيات متهورة قد تؤدي بصاحبها إلى الهلاك والموت مثال حالة الشخصية البطلة في التحليل السابق .
- ترتبط قضايا الهوية الذاتية ومشاكلها بظاهرة للاغتراب النفسي وبالهجرة، لأن ثبات الهوية وتماسكها يُدخل الإنسان في حالة دينامية متطورة في وطنه الأصلي، حيث يُحاول أن يجد حولا بطريقة آمنة عكس من يعاني من مشكلة الثقة في هويته الأصلية فإنه يبحث دائما على الحلول السهلة والسريعة، متجاهلا خطورتها عليه .
- تساهم وسائل التواصل الاجتماعي في ترسيخ صورة أوروبا المثالية في عقول الشباب العربي والجزائري، ذلك أن المقارنة بين المجتمعين العربي والغربي تتم من خلال الإعلام وغالبا ما تكون هذه الرؤية غير مكتملة وتُظهر بعض الجوانب فقط المتمثلة في الجانب المادي والمستوى المعيشي وإهمال الجوانب الأخرى والتي تصدم المعاصر العربي مثل العنصرية واختلاف الثقافة والدين وغياب بعض المظاهر الاجتماعية العربية كالكرم والرحمة والتعاون وغيرها من مظاهر الاختلاف .
- تُعد المرجعيات الاجتماعية والنفسية والثقافية المحاور الأساسية التي تركز عليها رواية العسل المرّ من خلال تجسيد شخصية البطل الروائي مراد الراض للفرير العنصري والمتحرر من جهة والمتشبع بالروح الوطنية والافتخار بتاريخه من جهة أخرى، غير أن واقع المضطرب في الجزائر جعله يُهاجر إلى فرنسا من أجل تحسين مستواه المعيشي، أي أن دوافع الهجرة كانت اجتماعية بالدرجة الأولى، نابعة من رغبته في جعل أمه فخورة به وأن يبحث عن مستقبل أحسن له ومن هذا يأتي السارد بكل القضايا والأفكار التي تمس فئة الشباب الجزائري في وقتنا الحالي .

## المراجع

blanc, C., & marie, C. (2001). histoire de l'immigration . paris: édition la découverte.

جيلالي إليلة. (2016). العسل المر. الجزائر : منشورات الشهاب.

حليم بركات. (2006). الاغتراب في الثقافة العربية ، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ط1. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

عادل بن محمد بن محمد العقيلي. (2004). الإغتراب وعلاقته بالأمن النفسي، رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجستير.

السعودية: جامعة نايف العربية ، كلية الدراسات العليا، الرياض.

عبد اللطيف محمد خليفة. (2003). دراسات في سيكولوجية الإغتراب. مصر: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

مصطفى فاسي. (2006/2005). البطل المغترب في الرواية العربية المعاصرة، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب العربي

المعاصر. الجزائر: جامعة الجزائر 2 أبو قاسم سعد الله.

مصطفى محمد سمير. (2010). الهجرة غير الشرعية ( موت من أجل الحياة) . القاهرة: مجلة بحوث اقتصادية عربية ، العدد 48.